مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة اسلامية . ثقافية . تصدر سنويا

العدد الثالث
1986

- صدى الأدب العربي في الدعوة الإسلامية
- مخطوطات ليبية
- وصول الإسلام إلى ساحل مليبار
- التيارات الفلسفية وعلاقتها بالصراع على الحكم

تعليق من أجل التحقيق والتوثيق

الأستاذ: الصديق يعقوب

نشرت هذه المجلة في عدديها الأول والثاني بحثين للاستاذ المهدي امبيرش حول: « الخلافة والإمامة » و« مذاهب بلا إسلام » لقيا ردود فعل وتعليقات مؤيدة أو معارضة يحمل بعضها وجهات نظر موثقة جديرة بالعرض والمناقشة .

والتزاماً منا بنشر الآراء التي ترد إلينا لتناقش ما نقدمه من أبحاث ومقالات نعرض فيما يلي تعليقاً للاستاذ الصديق يعقوب حول الموضوعين المذكورين تاركين مهمة الرد عليه للاستاذ الباحث .

التحرير

يجدر بالكاتب المجيد أو الذي يحاول الإجادة أن يعتبر نفسه قارئاً وهو يكتب . كما يجدر بالقارىء المنصف أن يعتبر نفسه كاتباً وهو يقرأ ؟ ذلك بأن الحال النفسية التي يكون عليها الكاتب وهو يكتب تختلف عن تلك التي يمر بها القارىء وهو يقرأ . بالإضافة إلى أن الكاتب واحد ، والقراء لما يكتب آلاف أو يزيدون .

وإنطلاقاً من هذا التصور وبوحي منه قرأت البحث الذي نشر على حلقتين بالعددين الأول والثاني لهذه المجلة التي تصدرها كلية الدعوة الإسلامية والتي رحبت بمناقشة الآراء والبحوث المنشورة بها وإثرائها أو بالأحرى مناقشة الآراء من أجل إثرائها . هذا البحث الذي كتبه صاحبه لابداء وجهة نظره في قضية الخلافة الإسلامية .

وليس بمستغرب أن تنشط الأقلام البارعة والناشئة كذلك للكتابة حول الخلافة الإسلامية في نهاية هذا القرن بعد أن اسقط رمزها الأخير وانحل عقدها في بداية هذا القرن . وفيما بين البداية والنهاية ارتفعت أصوات تحمد للذين اسقطوا هذا الرمز صنيعهم ، وارتفعت أصوات أخرى بفعل قانون الفعل ورد الفعل تندد بهذا العمل الاجرامي المبيت ، وتدعو الله أن يلتئم العقد من جديد فتعود إلى الوحدة أمة التوحيد .

ونظراً لهذه الفترة الطويلة من تاريخ الخلافة والخلفاء فقد تعددت الانطباعات حتى تباينت وتناقضت ومن ثم كان هناك مجال للأخذ والرد حول هذه القضية تأييداً أو معارضة دفاعاً أو نقداً . ويقيننا أن الآراء التي غايتها الحق ووسيلتها الصدق هي الجديرة بالاعتبار في الأوساط الفكرية وهذا هو مقتضى طبيعة الأشياء ومقتضى العبرة من التاريخ .

إن الذين درسوا قضية الخلافة الإسلامية أصناف يكشفها تتبع هذه الدراسات : فالغربي المستشرق يكتب عنها بروح المتشفي الباحث عن المثالب عبر تاريخ هذا النمط الفريد من سياسة الأمة وقيادتها على ما تقتضيه مسلمة الشورى في المجتمع الإسلامي بحق . والشرقي المستغرب يمثل دور الببغاء ولا يزيد . وهاوي التاريخ يسرد الأحداث سرداً وقد تدعوه ميوله إلى إغفال بعضها وسرد بعضها الآخر بصورة من المبالغة لا يقرها منهج البحث في التاريخ .

وهناك صنف من الباحثين في هذه القضية الإسلامية قصده من وراء بحثه منفعة عاجلة أو آجلة مادية أو معنوية . وخلاف هؤلاء جميعاً نجد من الباحثين من وجد نفسه أمام خليط من الآراء المتعارضة والروايات التاريخية المتباينة حول هذه

القضيـة نسخر قلمـه وما يملك من أدوات البحث ليميـز الخبيث من الطيب ويفـرز الصواب من الخطأ . وأشير هنا إلى ما كتبه الأستاذ العقاد حول الخلافة والشورى في عبقرية الصديق إنه فن البحث وأمانة العلم وواجب التحقيق .

وكاتب البحث موضوع هذا التعليق ليس واحداً من هؤلاء : لقد تبنى فكرة ارتآها عن الخلافة والشورى ثم راح يجاهد في المدافعة عنها بالحق وبالبـاطل . ومن حق البـاحث أن يتبنى ما يشـاء من الفكر ولكن من حق القـارىء على الكـاتب أن يتحرى الصدق والحق فيـما يكتب حتى يكون البحث في ظـلال الحقيقة لا في غيـوم الأهواء والنزعات . وأهمية الحوار بين القـارىء والكاتب تكمن في أن غـاية الحـوار ونتيجته إنما هي وضع الأمور في نصابها .

إن قصـدي من وراء التعليق بهذه الكلمـات على مـا كتب الباحث ليس هـو البرهنة على بطلان ما ادعى ولكن من أجل أن يوثق ويحقق هذه الدعاوي العريضة التي وردت في بحثه بدون سند والتي من خلالها ألصق التهم برجال وصفهم القرآن بأنهم : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » « وما بدلوا تبديلا » « أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلاً من الله ورضوانا » « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم » .

إن هذه الصفات التي ترتفع بموصوفيها إلى القمة في سلم درجـات الانسانيـة والتي تـردد صداهـا في القرآن الكـريم لهؤلاء الرجـال هذه الصفـات تتناقض جملة وتفصيلا مع ما أراد الباحث أن يلصقه بهم في بحثه . لقد رأى الكاتب أن إجتماع السقيفة إن هو إلا مؤامرة للانقضاض على الحكم من قبل هؤلاء النفر من قريش رأوا أن أهل المدينة سيسبقونهم إليه إن هم توانوا عنه . ما هذا !!! أين الإيمان وأين الوئام وأين المودة والألفة بل أين تلك الصفات التي وردت منذ قليل في هذه الآيات ؟ أين غرس الرسول ﷺ وأين تربية الوحي الإلهي لهؤلاء على مدى ثلاث وعشرين سنة . لقد عادت الجاهلية بكل أطماعها إلى نفوس هؤلاء وذلك بجرة قلم من الباحث . إنه يرى أن المجتمعين في السقيفة من المهاجرين والأنصـار رأوا في ذلك الـظرف أن الأمر يحتاج إلى حل حاسم « وإن كانت أسس غير إسلامية » وكأن الأسس الإسلامية تبعا لهذا المنطق لا تصلح لحسم الأمر في مثل هذا المـوقف . فما قيمـة هذه الأسس إذن . أو كأنهم أهملوا هذه الأسس مع صلاحيتها عمداً وأغفلوها إغفالا فكانوا بذلك

طليعة المتمردين على هذا الدين . هل نصدق الباحث في تخمينه أم نؤمن بنص القرآن : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾. هل انقلبت هذه النفوس المؤمنة حق الإيمان بشهادة القرآن بين يوم وليلة إلى نفوس شرهة تركن إلى حمية الجاهلية وتبحث عن السلطة .

إن الباحث في بحثه يستشهد بنصوص يقتطعها من كتب التاريخ اقتطاعاً ويصوغها على هواه . إن الباحث يتعلق بهامش التاريخ ويغفل جوهره ولب حقائقه : لقد حكى لنا ما قال أبو سفيان لعلي كرم الله وجهه في ذلك الموقف ولكنه احجم عن ذكر ما رد به الإمام حمية أبي سفيان .

إن صاحب البحث ينتقي من الأحداث والمواقف ما يساعده على تأييد رأيه ولا يبحث عما يكشف بعض جوانب الحقيقة : فلو بحثنا عن الأسس التي وضعها أبو بكر الصديق رضي الله عنه للخلافة في خطابه الأول لم نجد في بحث الكاتب منها شيئاً ذلك بأن هذه الأسس تمثل حقيقة الشورى في حين أن الكاتب يريد ـ متعسفاً ـ أن يباعد بين الخلافة وبين الشورى . ماذا كانت الممارسات من عمر رضي الله عنه أثناء خلافته ؟ إنها الشورى في أبسط وأوسع معانيها . لقد فهموا حقيقة الشورى فعاشوها لأنها من صفات المؤمنين . وهل تحققت صفات المؤمنين بل هل يمكن أن تتحقق في جيل من الأجيال الإسلامية كما تحققت في ذلك الجيل ؟

إننا لا نقدس هؤلاء النفر من الصحابة رضي الله عنهم فهذا التقديس يتناقض مع مقتضى الإيمان بالله والإيمان بتفرده بصفات العظمة والقدسية لكنا نضع هؤلاء في المكان الذي وضعهم فيه القرآن في نصوص صريحة . إن الممارسات التي حدثت في عهود بعض الخلفاء ليس من الحق في شيء أن تعد من سلبيات الخلافة كما يوحي الباحث في بحثه هذا وكما فعل بعض الباحثين حين كتب واهماً عن مأساة الخلافة .

لقد تساءل الباحث عن الخلافة : هل هي قاعدة دينية أم وضع دنيوي .

الشق الأول هو ما نقله الباحث عن الشهرستاني وحاول جاهدا ان يبطله. والشق الثاني هو ما ارتآه الباحث واجتهد في اثباته. والباحث يتعلق بخلاف لا يعدو اللفظ في حقيقة الأمر وواقعه لأن الشورى كانت عند اولئك أمرا عاما تدخل الخلافة في إطاره فإذا خرجت عنه فليست خلافة وليست من الإسلام في شيء . أما

الشهرستاني فحينما قال إن الخلافة قاعدة دينية إنما كان يصور أمراً واقعاً : فقضية تشغل المجتمع الإسلامي على هذه الصورة ويعالجها أعمق الناس إيماناً وأبلغهم إسلاماً وأحرصهم على مصلحة الأمة وإبقائها في كنف الإسلام . قضية هذا شأنها لا يمكن إقصاؤ ها بحال عن دائرة الدين . إن الإسلام يعالج أبسط القضايا الإجتماعية أفنخرجه أو نخرج عنه في أدق وأعظم قضايا المجتمع الإسلامي وهي قضية سياسة الأمة في ضوء تعليمات الإسلام . إن هذه القضية قد يصعب فهمها على نصراني تربى وعاش في كنف دولة ترى أن ما لقيصر لقيصر وما لله لله ولكن هذه القضية ذاتها بديهية بالنسبة للمسلم المنصف الذي يؤمن ضمن ما يؤمن به أن الأمر كله لله .

يرى الكاتب أن « اجتماع السقيفة لم ينه الصراع إن لم يكن قد وضع أسسه » وهكذا تجتمع هذه الصفوة من القادة المؤمنين المخلصين لدينهم ولأمتهم ليخوضوا التجربة بأنفسهم بعد أن توقف الوحي المرشد وانتقل الرسول الهادي ﷺ إلى الرفيق الأعلى ومع ذلك فهناك احتمال لدى الباحث بأن اجتماع هؤلاء هو الذي وضع أسس الصراع .

يتناول الباحث لفظي « خليفة » و « إمام » فيتتبع ورودهما في القرآن لينتهي إلى أنه لا متعلق في الآيات لمن يقول بالخلافة أو الإمامة . من قال إن الخلفاء تعلقوا بهذه الآيات إن لفظ الخليفة إنما جاء إتفاقاً تمشياً مع الاستعمال السائد : لقد انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى فمن يقدم من المسلمين ليقوم ببعض ما كان يقوم به هذا الرسول فهو خليفة للرسول . أما إذا كان بعض المسلمين يعتبر الإمامة ركناً من أركان العقيدة فتلك قضية أخرى للباحث أن يتحاور بشأنها مع المنظرين لها والمدافعين عنها .

ويتكرر الحديث عن الشورى في البحث فيدعى الباحث أنه لا يجد الشورى في القرآن لفظاً عمومياً وإنما يجدها سورة متكاملة . وهذا الادعاء لا سند له فالشورى في هذه السورة إنما هي لفظ عمومي بالفعل فهي لم ترد في السورة المسماة بها إلا مرة واحدة بهذا اللفظ العمومي الشامل .

يرى الكاتب أن « القول بتكوين دولة من مليار مسلم متعددي الشعوب والثقافات واللغات هو حلم جميل ولكنه لا يزيد عن كونه كذلك » وإذن فمنطق

الباحث أن كثرة المسلمين وتنوع لغاتهم وثقافاتهم هو العقبة في سبيل توحيد هذه الأمة وقيام دولة لها . ونسأل الكاتب : هل هذه عقبة في العالم الإسلامي وحده ؟ ألم تقم دول من هذا الطراز حتى في عالمنا المعاصر ؟ الغريب أن الباحث يرى أنه « يمكن أن يكون هناك مؤتمر شعبي عام لكل الشعوب الإسلامية » ماذا يبقى بعد هذا حائلاً دون قيام الأمة الإسلامية بتكوين الدولة الواحدة ؟ إنها مجرد إجراءات تنظيمية ما دام هذا المؤتمر قائماً وهو الذي يضع سياسة هذه الدولة الواحدة وإن تعددت أجزاؤها وتباعدت .

ولا أدري ما إذا كان الباحث قد تنبه إلى ما يشبه التناقض في بحثه : إنه في نهاية البحث يستبعد قيام مجتمع الدولة الإسلامية ، ويرى ذلك حلماً وينصح بعدم التعويل عليه لكنه في بدء البحث قال إن الذي دعاه إلى البحث في قضية الخلافة هو : « التزامه بقضية الوحدة الدينية » .

أخيراً وأنا أريد أن أنهي هذا التعليق قبل أن ينتهي أشير إلى أن الباحث في حلقة البحث الثانية قد وقع أو أوقع نفسه في خلط فكري وتاريخي حيث لم يحقق القضايا التي أوردها في بحثه متعلقة بالفرق والمذاهب وصلتها كلها بالسياسة . وحصيلة ما يمكن أخذه من كتب التراث نصاً أو استنتاجاً أو مقارنة هي أن هناك فرقاً نشأت نشأة سياسية ثم انتقلت فيما بعد إلى دور التنظير والتأسيس . وتبرز هنا فرقتا الخوارج والشيعة . ولكن هناك فرقاً أخرى كانت نشأتها متأخرة وكانت هذه النشأة فكرية خالصة لا صلة لها بالسياسة وتبرز هنا فرقتا المعتزلة والاشاعرة . . ومع أني أتفق مع الباحث في ضرورة التأكيد على أن الإسلام لا يقر وجود هذه الفرق أو غيرها غير أني أرى - خلافاً لما صنع الباحث - أن البحث في تاريخ الفرق ونشأتها وتطورها يجب أن يكون موضوعياً منهجياً موثقاً تستقي حقائقه من المصادر المعتبرة في التاريخ العام أو في تاريخ الفرق الخاص . وهنا تلزم مراعاة المصطلحات لأنها مناط الفهم قبل إصدار الحكم . فالمذاهب غير الفرق إذ هي أي المذاهب مدارس في فهم أصول التشريع واستنباط الأحكام الفقهية منها . وحين اشتهر أعلام في مثل هذه المباحث تبنى بعض المسلمين آراء بعض هؤلاء فنشأ من بعدهم ما عرف في تاريخ الفكر الإسلامي بالمذاهب وسلبيات هذه المذاهب لا تفضلنا عن عطاء أعلامها الزاخر . إن خلاصة تلك المذاهب لا تزيد عن كونها اجتهادات في فهم النصوص التي تحتمل

الاجتهاد وما زاد عن ذلك فإنما هو من إضافات عصور تدهور الثقافة الإسلامية أعني ثقافة المسلمين في تلك العصور .

ومن هذا المنطلق فلا يتأتى بحال أن نقول عن هذه المدارس الفقهية التشريعية إنها مذاهب للإسلام . وإذا كان الأخ الباحث يخالفني في هذا التصور فبيني وبينه منتجات هؤلاء الاعلام الذين نسبت إليهم هذه المذاهب . وإذن فالمسألة ليست دعاوي أو اعتراضات إنما هو واقع تراثي يحتاج في تصوره والحكم عليه إلى معاناة البحث والتحقيق . للجوار بقية إن شاء الباحث وإلى لقاء .